الفصل الرابع والستون

الله ومصير الانسان

لا نعرف رأي الجاهليين في الخلق ، وفي كيفية نشوء هذا الكون، إذ لم تصل الينا نصوص جاهلية في هذا المعنى . ولا بد أن يكون لهم كما كان لغيرهم رأي في الخلق وفي نشوء الكون . فموضوع نشوء الكون وظهوره ، من الموضوعات التي تثير رأي كل انسان مهما كانت ثقافته وكان تفكيره .

وفي القرآن الكريم كلمات مثل (البارىء) و (المصور) و (الخلاّق) و (خلقنا) و (خلقت) و (خلقناكم) و (خالق) وغيرها مما له علاقة بخلق الكون والانسان وبقية المخلوقات ، وفيه كيفية خلق الله للكون ومن فيه وكيفية خلق الانسان ومن أي شيء خلق. ولكن هل كان يعرف جميع الجاهليين هذا المعنى المنزل في كلام الله ، وهل نزلت هذه الآيات لإرشاد الناس الى ذلك، أو انها نزلت لتذكير القوم ولفت نظرهم الى شيء يعلمونه ولكنهم كانوا ينسبونه لغير الله أو يتجاهلونه ، إن كان ذلك على سبيل التذكير ، فمعنى هذا ان لأهل الجاهلية رأياً في كيفية الخلق ، وإن كان ذلك على سبيل التعليم والإرشاد ، فإنه يدل على أن من خوطب بتلك الآيات لم يكن له فقه وعلم بما خوطب به .

وفي القرآن الكريم آيات فيها خطاب للمشركين في بيان فساد رأيهم واعتقاداتهم ، وفيها ردّ عليهم ، منها نستطيع أن نحيط بعض الإحاطة بآرائهم في الوجود وفي البعث والحشر والحساب وغير ذلك من أمور تتعلق بدياناتهم . وهذه الآيات هي

الشواهد الوحيدة التي نملكها من آراء القوم في ذلك العهد. أما ما جاء في روايات الأخباريين وفي كتب التفسير والحديث والملل والنحل، ففيه بعض الشيء عن آراء الجاهليين القريبين من الاسلام، ولا سيما عرب مكة ويثرب عن تلك الأمور.

ويفهم من القرآن الكريم ان من الجاهليين من كان يعتقد ان للعالم خالقاً خلق الكون وسوّاه، وان منهم من كان يعتقد بوجود إلٰه واحد فهم موحدون، وان منهم من أقر بوجود إلٰه واحد غير انه رأى تعذر الوصول اليه بغير وسطاء وشفعاء فاعتقد بالأرواح وبالجن وعبد الأصنام لتكون واسطة تقربه الى الله[1].

أما كيف خلق الله الأرض والسماوات وكيف نشأ الكون، فذلك ما لم يتعرض له القرآن الكريم حكاية على لسان الجاهليين. ولذلك لا نعرف رأي أولئك القوم الذين عاصروا الرسول وعاشوا قبيل الاسلام في كيفية ظهور الوجود وخلق الكون.

ويفهم من بعض الأخباريين أن من الجاهليين من كان يرى أن خالقاً خلق الأفلاك، غير أنها تحركت أعظم حركة فدارت عليه وأحرقته، لأنه لم يقدر على ضبطها وإمساك حركتها، وأن منهم من كان يقول: «إن الأشياء ليس لها أول البتة، وإنما تخرج من القوة الى الفعل. فإذا خرج ما كان بالقوة الى الفعل، تكونت الأشياء مركباتها وبسائطها من ذاتها لا من شيء آخر. وقالوا إن العالم لم يزل ولا يزال ولا يتغير ولا يضمحل مع فعله. وهذا العالم هو الممسك لهذه الأجزاء التي فيه»[2]. وهذا كلام إن صح أنه من كلام الجاهليين ومن مقالاتهم، فإنه يدل على تعمق القوم في المقالات، وعلى أن لهم رأياً وفلسفة في الدين، وأنهم لم يكونوا على الصورة التي يتخيلها معظمنا عنهم، وهي الصورة التي رسمها لهم أهل الأخبار في أثناء كلامهم العام عن الجاهليين.

الله الخالق:

ويظهر من القرآن الكريم، أن قريشاً كانوا يؤمنون بإلٰه واحد خلق الكون، وهو رب السماوات والأرض. ففي سورة العنكبوت: «ولئن سألتهم من خلق

---

١ بلوغ الارب (٢/١٩٤ وما بعدها).
٢ بلوغ الارب (٢/٢٢٠ وما بعدها).

السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولنّ : الله ، فأنى يؤفكـــون »[1] . وفي هذه السورة نفسها سؤال آخر موجه الى المشركين « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ، ليقولن : الله ، قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون »[2] . وفي سورة لقمان سؤال آخر موجه الى أولئك المشركين ، وجواب صادر منهم ، هو هذا الجواب نفسه : إقرار بوجود خالق واحد خلق السماوات والأرض : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ، ليقولن : الله . قل الحمد لله،بل أكثرهم لا يعلمون »[3] . وفي سورة الزخرف: « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ، ليقولن : خلقهن العزيز العليم »[4]. وفي سورة الزمر : « ولئن سألهتم من خلق السماوات والأرض ، ليقولن الله»[5]، وفي سورة الزخرف أيضاً : « ولئن سألتهم من خلقهم ، ليقولن : الله . فأنى يؤفكون »[6] ، وفي سورة العنكبوت : « ولئن سألتهم من نـزّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ، ليقولن : الله »[7] . وهناك آيات أخرى عـلى هذا النحو ، فيها أسئلة موجهة الى المشركين عن خلق السماوات والأرض،وأجوبة على ألسنتهم فيها اعتراف بأن خالقها وصانعها هو الله .

وفي القرآن الكريم أيضاً ان قريشاً كانت تعتقد ان الله هو الذي ينزل المطـــر ويحيي الأرض بعد موتها[8] ، وفيه انهـــم كانوا يقسمون به[9] ، وانهم كانوا قد جعلوا له نصيباً مما ذرأ من الحرث والأنعام[10] ، وانهم كانوا يقولون إن الله هو الذي شاء فجعلهم وآباءهم مشركين ، وانه لو لم يشأ لما أشركوا بعبادته أحداً[11]، وانهم كانوا يتضرعون اليه ويستغيثون به في الكوارث والملمات ، وانهم جعلوا له

---

١ سورة العنكبوت ، الرقم ٢٩ ، الآية ٦١ .
٢ العنكبوت ، الآية ٦٣ .
٣ سورة لقمان ، الرقم ٣١ ، الآية ٢٥ .
٤ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ٩ .
٥ الزمر ، الرقم ٣٩ ، الآية ٣٨ .
٦ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ٨٧ .
٧ العنكبوت ، الرقم ٢٩ ، الآية ٦٣ .
٨ العنكبوت ، الآية ٦٣ .
٩ الانعام ، الآية ١٠٩ ، النحل ، الآية ٣٨ .
١٠ الانعام ، الآية ١٣٦ .
١١ الانعام ، الآية ١٤٨ .

بناتاً وبنين وشركاء الجن[1] . فقريش اذن وفق هذه الآيات قوم ، كانوا يؤمنون بإلـه عزيز عليهم ، ومن آيات ذلك انهم جعلوا له نصيباً في أموالهم،مع ان المال من أعز الأشياء على الانسان ، لا سيما بالنسبة لتلك الأيام .

وفي تلبية الجاهليين المنصوص عليها في كتب أهل الأخبار اعتراف صريح واضح بوجود إلـه . كانوا يلبون بقولهم : (لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريك هو لك . تملكه ومـا ملك ، يعنون بالشريك الصنم ، يريدون ان الصنم وما يملكه ويختص بـه من الآلات التي تكون عنـده وحوله والنذور التي كانوا يتقربون بها اليه كلها ملك لله عز وجل)[2] فذلك معنى قولهم : تملكه وما ملك . فهم يعترفون ويقرون بوجود الله ، لكنهم يتقربون اليه بالأصنام . وهذا هو الشرك .

وفي دعاء العرب اعتراف بوجود (الله) ، فقولهم : (رماه الله بما يقبض عصبه) ، و (قمقم الله عصبه) ، و (لا ترك الله لـه هارباً ولا قارباً) ، و (شتت الله شعبه) ، و (مسح الله فاه) ، و (رماه الله بالذبحـة) ، و (رماه الله بالطسأة) ، و (سقاه الله الذيغان) ، و (جعل الله رزقه فوت فمه) ، و (رماه في نيطه) ، و (قطع الله به السبب) ، و (قطـع الله لهجته) ، و (مدّ الله أثره) ، و (جعل الله عليها راكباً قليل الحداجة) ، و (لا أهدى الله له عافيـة) ، و (أثل الله ثلله) ، و (حتّـه الله حت البرمة) ، و (رماه الله بالطّلاطلة) ، و (رماه الله بالقصمل) ، و (ألزق الله به الحَوْبة) ، و (لحاه الله كما يُلحى العود) ، و (اقتثمه الله اليه) ، و (ابتاضه الله) ، الى آخر ذلك من دعاء يدل على وجود ايمان بخالق هو الله[3] .

وفي الشعر المنسوب الى الجاهليين اعتقاد بوجود الله ، واتقاء منـه ، وتقرب اليه باحترام الجوار وقرى الضيف . هذا عمرو بن شأس يقول في شعره :

---

١ الانعام ، الآية ١٠٠ .
٢ اللسان (١٠/٤٥٠) ، (شرك) .
٣ راجع بقيته في ذيل الامالي والنوادر (ص ٥٧ وما بعدها) ، (عود الى بحث دعاء العرب) .

ولولا اتقاء الله والعهد قد رأى منيتـــه منى أبوك الليالـيـــا [1]

فلولا اتقـــاء شأس الله ، لفتك بخصمه ، وجعله من الهالكين . وفي بعضه اعتراف بأن هذه الأرض الواسعة هي (بلاد الله) ، أينما حللت فيها فهي أرضه وبلاده [2] . وهذه نظرة مهمة جداً عن رأي الجاهليين في الله وفي الأرض ، إن صح أن هذا الشعر الوارد فيه حقاً من شعر أهل الجاهلية .

و (الله) كما جاء في شعر زهير بن أبي سُلمى ، عالم بكل شيء، عارف بالخفايا وبالأسرار ، وبما ظهر من الأعمال وما بطن [1] .

فلا تكتمنّ الله مـا في نفوسكم ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم [3]

وهو عدوّ للأشقياء شديد عليهم ، لا يرحم ظالماً ، وأمرهُ بُلْغٌ به تشقى به الأشقياء [4] وهو يثيب على الإحسان ، ويجزي المحسن على جميل إحسانه [5]. وهو الذي يعصم من السيئات والعثرات [6] . وهو مقر بوجود يوم حساب يحاسب فيه الناس على ما قاموا به من أعمال ، وقد ينتقم الله من الظالم في الدنيا قبل الآخرة ، فلا مخلص له [7] .

---

١ الاغاني (١٠/٦٢) ، نسب عمرو بن شأس وأخباره في هذا الشعر وغيره .
بدا لي أن الله حق فزادني الى الحق تقوى الله ما قد بدا ليا
شرح ديوان زهير (٢٨٧) .

٢ فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا
ديوان عروة (٥١) .

٣ شرح ديوان زهير (١٨) .

٤ فهداهم بالاسودين وأمر الله بلغ يشقى به الاشقياء
اللسان (١٠/٣٠٢) ، (بلغ) ،
فهداهم بالاسودين وأمر الله بلغ تشقى به الاشقياء
تاج العروس (٦/٤) ، (بلغ) .

٥ رأى الله بالاحسان ما فعلا بكم فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو
شرح ديوان زهير (١٠٩) .

٦ ومن ضريبته التقوى ويعصمه من سئى العثرات الله والمرحم
شرح ديوان زهير (ص ١٦٢) .

٧ فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيودع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم
شرح ديوان زهير ، لثعلب (ص ١٢) ، بلوغ الارب (٢/٢٧٧ ومابعدها) ، شعراء النصرانية (القسم الرابع ص ٥١٨) ، جمهرة أشعار العرب (٧١) .

والله (كريم) لا يكدر نعمة ، اذا دُعي أجاب . وهذا هو رأي الأعشى في الرب ، اذ يقول :

ربّـي كريم لا يكدر نعمة واذا يناشد بالمهارق أنشدا [1]

وقد ورد اسم الجلالة في أشعار كثير من الشعراء الجاهليين : ورد في شعر امرىء القيس وغيره ، فامرؤ القيس يقول : (من الله) و (لله)[2] ، و (تالله)[3] ، و (قبح الله)[4] ، و (والله)[5] ، و (يمين الله) ، و (يمين الإلـه)[6] ، و (الإلـه) هي (الله) ، و (الحمد لله)[7] . ونرى العرب عامة تستعمل في كلامها : (لله دره)[8] ، و (لا يبعد الله)[9] ، و (لحى الله)[10] ،

---

١ ديوان الاعشى ، قصيدة ٣٤ (ص ١٥١) ، « تحقيق كاير » .

٢ فاليوم أشرب غير مستحقب اثما من الله ولا واغل
لله زبدان أمسى قرقرا جلدا وكان من جندك أصم منضودا
شرح ديوان امرىء القيس ، للسندوبي (ص ٦٣ ، ١٥٢) ، وسيكون رمزه : سندوبي .

٣ تالله قد علمت قيس اذا قذفت ريح الشتاء بيوت الحي بالعنن
شرح ديوان زهير (١٢١) .
يا لهف هند اذ خطئن كاهلا تالله لا يذهب شيخي باطلا
سندوبي (١٥٤) .

٤ ألا قبح الله البراجم كلها وجدع يربوعا وعفر دارها
سندوبي (١٨٠) .

٥ فقد أصبحوا والله أصفاهم به أبر بميثاق وأوفى بجيران
والله لا يذهب شيخي باطلا حتى أبير مالكا وكاهنا
سندوبي (١٥ ، ١٨٩) ، شرح ديوان زهير (٢٤) .

٦ كلا يمين الاله يجمعنا شئى وأخوالنا بنو جشما
سندوبي (١٨١) .

٧ أرى ابلي والحمد لله أصبحت ثقالا اذا ما استقبلتها صعودها
سندوبي (٦٤) .

٨ كم شامت بي ان هلكـ ـت وقائل : لله دره !
ديوان لبيد (ص ٢) ، « تحقيق كارل بروكلمن » .

٩ وقولي ألا لا يبعد الله أربدا وهدى به صدع الفؤاد المفجعا
ديوان لبيد (ص ٦) .

١٠ لحى الله صعلوكا اذا جن ليله مصافي المشاش آلفا كل مجزر
ولله صعلوك صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور
ديوان عروة بن الورد (٢٦ ، ٥٣) .

و (جزى الله)[1] ، و (عمر الله)[2] ، وأمثال ذلك مما يرد في أشعار الشعراء الجاهليين ، يخرجنا تدوينه وحصره في هذا المكان عن حدود الموضوع .

وقد جاءت لفظة الجلالة في ايمان أخرى ، في مثل : (لعمر الله) ، و (ها لعمر الله) كالذي ورد في شعر زهير :

تعلمن هـــا لعمر الله ذا قسماً فاقصد بذرعك وانظر أين تنسلك[3]

وورد (هـــا الله) و (والله) و (الله) و (نعم الله) و (أي والله لأفعلن) ، و (ايم الله) و (ايمـــن الله) و (يعلم الله) و (علم الله) وأمثال ذلك[4] .

ومن ايمانهم الدالة على الاعتقاد بوجود خالق ، قولهم : (لا وبارىء الخلق) ، و (لا والذي يراني من حيث ما نظر) و (لا والذي نـادى الحجيج له) ، و (لا والـــذي يراني ولا أراه) ، و (لا والذي كل الشعوب تدينـــه) ، و (حرام الله لا آتيك) ، و (يمين الله لا آتيك) ، و (لا والذي جـــلد الإبل جلودها) ، و (والذي وجهي زمم بيته) ، و (لا والـــذي هو أقرب إليّ من حبل الوريد) ، و (لا ومقطع القطر) ، و (لا وفالق الإصباح) ، و (لا ومهب الرياح) و (لا ومنشر الأرواح)[5] ، الى غير ذلك من ايمان حلفوا بها ، تدل على إيمان وعقيدة بوجود خالق ، فحلفوا به .

ونجد في معلقة امرىء القيس قسماً بالله حكي على لسان صاحبة صاحب المعلقة :

فقالت : يمين الله ما لك حيلة وما إن أرى عنك الغواية تنجلي[6]

وترى في بيت لامرىء القيس وهو يذكر اقدامه على الشرب :

فاليوم أسقى غير مستحقب إثمـــاً من الله ولا واغل[7]

---

١ جزى الله خيرا كلما ذكر اسمه أبا مالك ان ذلـــك الحي اصعدوا
ديوان عروة (ص ٥٠) .

٢ قعيدك عمر الله ، هل تعلميننني كريما اذا اسود الانامل أزهـــرا
ديوان عروة بن الورد (٢٢) ، Reste, S. 224.

٣ السنن الكبرى (٢٦/١٠ وما بعدها) ، المخصص (١١٣/١٣) .

٤ المخصص (١١٤/١٣ وما بعدها) .

٥ ذيل الامالي (ص ٥٠ وما بعدها) .

٦ المعلقات العشر وأخبار شعرائها (٦٢) .

٧ شعراء النصرانية (١٩) .

فالرجل مؤمن بالله ، وقد وفى بما عاهد الله عليه ، وهو لا يخشى بعد ذلك إثماً اذا شرب ، لأنه وفى بنذره .

ونراه يذكر الله أيضاً في هذا البيت :

لله زبدان أمسى قرقراً جلداً وكان من جندل أصم منضودا [1]

ثم نراه يشكر الله بجملة : (والحمد لله) في هذا البيت :

أرى إبلى والحمد لله أصبحت ثقالاً إذا ما استقبلتها صعودها

ونراه يحث الناس على التمسك بحبل الله ، فبالله يكون النجاح ، ويحث الناس على عمل البر ، والبر خير حقيبة الرجل :

والله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجل

ونفهم من هذه الأبيات ومن أبيات أخرى ، إن امرأ القيس رجل مؤمن يعتقد بالله الواحد ، مؤمن بالله الواحد ، مؤمن بالثواب وبالعقاب ، وأنه كان يخاف الله ويخشى الإثم والفسوق ، ولا أدري أينطبق هذا الذي نقوله على امرىء القيس الذي يتحدث عنه أهل الأخبار ويصفونه بأنه رجل عابس ميّال الى اللهو والشهوات رمى صنمه بسهم وأنّبه لما جاء الجواب بخلاف ما كان يرغب فيه ويشتهيه . ثم لا أدري اذا كان اسلوب هذا الشعر من أسلوب الشعر الجاهلي وطرازه ؟ وإذا كان هذا الشعر صحيحاً ، فلمَ أدخل رواته شاعره في الجاهليين الوثنيين ولم يدخلوه في عداد المؤمنين بالله من الأحناف ؟

وإذا اعتقدنا بصحة الأبيات المنسوبة الى عَبيد بن الأبرص :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كلّ خير والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك علاّم ما أخفت القلوب

وقلنا مع القائلين إنها من شعر ذلك الشاعر حقاً ، وجب عدّه إذن في جملة

---

١ شعراء النصرانية (٤٠) .

الموحدين المؤمنين المسلمين ، وإن عاش قبل الإسلام . فرجل يقول هذا القول ، لا يمكن إلاّ أن يكون مسلماً مؤمناً بالله الواحد الأحد علاّم الغيوب والعارف بما في القلوب ، ومن الممهدين للتوحيد بين العرب قبل الإسلام .

وقد أهمل بعض رواة هذه المعلقة البيت الآتي :

والله ليس لـــه شريك علام ما أخفت القلوب

وكأنهم فطنوا الى ان من غير المعقول نسبته الى رجل وثني ، مهما كان رأيه في الأوثان والتوحيد ، لا يمكن أن يستعمل هـذه الألفاظ التي لم يستعملها العرب بهذا الشكل إلا في الاسلام .

والى عبيد نفسه ينسب الأخباريون قول هذا البيت :

حلفت بالله إنّ الله ذو نعم لمن يشاء وذو عفوٍ وتصفاح

ورجل يقول هذه الأبيات وأبياتاً أخرى من لونها ، لا يمكـــن إلا ان يكون موحداً مؤمناً ، من فصيلة المؤمنين بالله من الأحناف . وقد أراح (شيخو) نفسه وأراح الناس حين ذهب الى ان عبيداً وأمثاله من الشعراء الجاهليين كانوا نصارى وان هذا التوحيد هو توحيد نصراني محض ، وقف عليه عبيد في زيارتـه للحيرة مهد النصرانية في ذلك العهد ، فاعتنقه ، فهو على رأيه اذن شاعـــر نصراني ، وشعره شعر نصراني لا يرد ولا يرفض .

ونجد (طفيل بن عوف) الغَنَوي يقسم بـ (الإلَه) في شعره . غـير أن هناك رواية تضع (رضى) موضعَ (الإلَه) فيكون القسم بـــه ، ورضى اسم صنم كان لطيء[1] . وقد ذكر (الله) في مواضع أخرى من شعره ، وقال إنه هو الذي يصلح الأمور ، ويسد العجز والثُغر التي ليس في وسع الإنسان سدّها[2] ،

---

١ « فقال بصـــير يستبين رعالهـــا هم والالـه من تخافـين ، فاذهبي
ويروي ، ولعلها رواية أبي عبيدة :
وقال بصـــير قـد أبان رعالهـــا فهي ورضى من تخافين ، فاذهبـــي
ورضى اسم صنم كان لطيء ، ديوان طفيل بن عوف الغنوي « تحقيق ف. كرنكو » (لندن ١٩٢٧) ، (ص ١٢) .

٢ لعمري لقد خلى ابن جيدع ثلمـــة فمن أين ان لم يرأب الله تـــرأب
ديوانه (ص ١٩) .

وإنه يجزي الناس على أعمالهم[1] .

وفي معلقة (الحارث بن حِلِّزة) اليشكريّ : « أمر الله بلغ تشقى به الأشقياء »[2] ، وأن الله عالم بالأمور[3] .

ونجد (المتلمس) ، يُقسم بالله في شعره ، ويذكر الله في مثل جملة (أبى الله)[4] للتعبير عن مشيئة الله وإرادته ، وجملة (لله دري) في التعجب[5] وجملة (تقوى الله)[6] ، و (عاداك الله)[7] وغيرها مما يدل على أنه كان يعتقد أن الله يعادي الأعداء ويحبّ المحبين .

ولكننا نجده في مواضع أخرى يقسم باللات وبالأنصاب ، والمقصود بالأنصاب الأوثان مما يشعر أنه كان يؤمن بها ، فكيف نوفق بين اعتقاده بالله واعتقاده باللات

---

١ جزى الله عوفا من موالي جنابة ونكراء خيرا كل جاد مودع
ديوانه (ص ٥٠) .
جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت بنا نعلنا في الواطئين فزلت
ديوانه (ص ٥٧) .

٢ فهداهم بالاسودين ، وأمر الله بلغ تشقى به الاشقياء
شرح القصائد العشر (٤٦٨) ، (البيت رقم ٦٢) من المعلقة .

٣ وفعلنا بهم كما علم الله وما ان للخائنين دماء
البيت (رقم ٧٥) من المعلقة ، (ص ٤٧٥) من شرح القصائد العشر للتبريزي (محمد محيي الدين عبد الحميد) .

٤ يا آل بكر ألا لله احكموا طال الله الثواء وثوب العجز ملبوس
ديوان المتلمس (ص ١٦٩) ، (طبعة فولرس) ، جمهرة أشعار العرب (ص ٤٤ ، ٢٠٦) ، شعراء النصرانية (٣٣٢) .
وقال :
وهل لي أم غيرها ان تركتها أبى الله الا أن أكون لها ابنا
شعراء النصرانية (٣٣٨) .
وقال :
اطردتني حذر الهجاء ولا والله والانصاب لا نثل
وذلك في رواية . وفي الروايات الشائعة « واللات » بدلا من والله ، ديوان المتلمس (١٧١) .

٥ تفرق أهلي من مقيم وظاعن فلله دري أي أهلي أتبع
ديوان المتلمس (ص ١٨٧) .

٦ وأعلم علم حق غير ظن وتقوى الله من خير العقاد
ديوان المتلمس (ص ١٩٥) ، شعراء النصرانية (٣٤٣) .

٧ لا خاب من نفعك من رجالها بلا وعادى الله من عاداكا
ديوان المتلمس (ص ٢٠٦) ، شعراء النصرانية (٣٤٨) .

والأنصاب ؟ وهل نعدّ هذا الشعر صادراً من شاعر واحد ؟ نعم ، يجـوز أن يكون قاله هو . قاله لأنه كان يعتقد بوجود إلـه ، فهو يؤمن به ويقر بوجوده، غير أن قسمه باللات والأنصاب ، هو من باب عقيدة الجاهليين المؤمنين بوجود إلـه ، ولكنهم كانوا يتقربون اليه بالأصنام والأوثان والأنصاب . ويتوقف هـذا التفسير بالطبع على اثبات أن هذا الشعر له حقاً ، وليس مفتعلاً ، ولا مما أدخل الرواة عليه تغييراً أو تبديلاً .

ونجد في شعر النابغة الجعدي ، أبو ليلى عبـدالله بن قيس ، الشاعر المخضرم المتوفى سنة (٦٥) للهجرة ، قصيدة مطلعها :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

يلي هذا المطلع قصة نوح والسفينة ، وهي سفينـة مصنوعة من خشب الجوز والقار . وفي هذه القصيدة اعتراف بالتوحيد ، وبوجود إلـه واحد لا شريك له ، لا يحمد إلا هو ، وهو شعر لا يمكن أن يكون إلا من شعر شاعر مسلم،إن صح انه من شعره ، فيجب أن يكون مما نظمه في الاسلام .

وينسب الى (لبيد) اعتقاده ان الله يبسط الخير والشر على عباده ، وانه منتقم ممن يخالفه ، معاقب له ، كما عاقب (إرما) و (تبعا) ، وقوم (لقمان بن عاد) ، و (أبرهة) وذلك في أبيات أولها :

من يبسط الله عليه إصبعاً بالخير والشر بأي أولعا

وهي رجز ، يرى بعض العلماء انها ليست من رجزه[1] .

ونجد معود الحكماء ، وهو معاوية بن مالك بن جعفر ، يذكر الله ويحمده ، فيقول : « بحمد الله » ، ويقول (عامر) : « أردت لكيما يعلم الله انني » ، ويقول (خداش بن زهير) : « وذكرته بالله بيني وبينه »[2] .

---

١ ديوان لبيد (٣٣٧ وما بعدها) .

٢ شرح ديوان لبيد ، (ص ٢١) ، (المقدمة) ، (تحقيق الدكتور احسان عباس) ، قيل له معود الحكماء لقوله :

أعـود مثلها الحكماء بعـدي اذا ما الحق في الاشياع نابـا

تاج العروس (٢/٤٤٠) ، (عود) .

وذكر أهل الأخبار ان الجاهليين الوثنيين كانوا يفتتحون كتبهم بجملة (باسمك اللهم) . ساروا في ذلك على هدى (أمية بن أبي الصلت) مبتدعها وموجدها ، كما في رواية تنسب الى ابن الكلبي . وذكر بعض آخر ان قريشاً كانت تستعمل هذه الجملة منذ عهد قبل الاسلام ، وانها بقيت تستعملهـا الى ظهور الاسلام . وقد استعملها الرسول ، ثم تركها ، وذلك بنزول الوحـي باستعمال (بسم الله الرحمن الرحيم)[1] . ونحن لا يهمنا هنا اسم مبتدع هذه الجملة ، وانما الذي يهمنا منها هو ما فيها من عبارة تدل أيضاً على التوحيد . فإذا صح ان الجاهليين كانوا يستعملون هذه الجملة ، فإن استعمالها هذا يدل على اعتقاد القوم بإلـه واحد ، أي بعقيدة التوحيد ، ولا يعقل بالطبع استعمال شخص لهذه الجملة في رسائله ، يفتتح بها كتبه ، لو لم يكن من أصحاب عقيدة التوحيد ، وقد جاء في بعض الأخبار ان هذا الاستعمال متأخر ،وانه حدث بعد ان تغيرت عوائد القوم في افتتاح كتبهم ، فقد كانت عوائدهم القديمة افتتاح رسائلهم بأسماء آلهتهم كاللات والعزى ، فرفعوا تلك الافتتاحيات القديمة واستبدلوا بها هذه الجملة الجديدة ، جملة (باسمك اللهم) . وعلى كل ، فإن جملة (باسمك اللهم) وأمثالها إن صح انها من ذلك العهد حقاً فإنها تدل على حدوث تطور في الحياة الدينية عند الجاهليين . وإلا ،فكيف يتصور استعمال هذه الجملة الموحدة مع وجود الشرك لو لم يكن قـد حدث تطور فكري كبير في هذا العهد حملهم على استعمال هذه الجملة وأمثالها من الجمل والألفاظ الدالة على التوحيد[2] ؟

وقد درس بعض المستشرقين هـذا الموضوع ، ولا سيما موضوع ورود اسم الجلالة في الشعر الجاهلي ، فذهبوا في ذلك مذاهب . منهم من أيد صحة وروده في ذلك الشعر ، وآمن أن الشعر الذي ورد فيه هو شعر جاهلي حقـاً ، ومنهم من أنكر ذلك ، وأظهر أنه شعر منحول مصنوع ، صنع على الجاهليين فيما بعد ، ومنهم من ذهب الى أنه شعر صحيح ، غير أن رواة الشعر أدخلوا اسم الجلالة فيه ، ولم يكن هو فيه في الجاهلية ، بأن رفعوا أسماء الأصنام وأحلوا اسم الله محلها .

---

١ بلوغ الارب (٣/٣٧٥) ، تاج العروس (٩/٤١١) ، (لاه) .

٢ « دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اكتب باسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم » ، الطبري (٢/٦٣٤) ، (صلح الحديبية) .

وبينما نجد أهل الأخبار ينسبون الى هؤلاء الشعراء وأمثالهم الاعتقاد بالله، نجدهم ينسبون اليهم ، الحلف بالأصنام ، والاعتقاد بها . فقد نسبوا الى (خداش بن زهير) شعراً آمن به بالله ، ثم نسبوا له قوله :

وبالمروة البيضاء يوم تبالة ومحبسة النعمان حيث تنصرا

والمروة البيضاء، هي ذو الخلصة ، ثم هو يقسم بمحبسة النعمان ، وهو نصراني[1]. أفلا يدل هذا على وجود تنافر أو تناقض في عقيدة أمثال هؤلاء الشعراء ؟ والذي لا وقوف له على طبائع أهل الجاهلية ، يرى هذا الرأي ، أو يذهب الى أن هذا الشعر مصنوع مفتعل . أما الذي يعرف عادة العرب في القسم ، فلا يستغرب منه ولا يرى فيه تنافراً ، فقد كان الجاهليون يقسمون بكل شيء ، يقسمون بالشجر وبالحجر وبالكواكب ، وبالليل وبالنهار ، وبالأصنام ، وبعمر الإنسان وبحياتهم وبلحى الرجال ، وبالأصنام وبالمعابد ، وبالله ، وبالخبز والملح ، لا يرون في ذلك بأساً ولا تناقضاً مع عقيدتهم . هذا (عديّ بن زيد) العبادي ، يقسم بمكة ، وهو نصراني ، لا يري للكعبة في دينه حرمة ولا مكانة . أقسم بها على قاعدة العرب في القسم ، وقد أقسم بأمور أخرى من أمور أهل الجاهلية الوثنيين، ولم يذكر أحد أنه بدل دينه ، وصار وثنياً . وكذلك الأمر مع غيره من شعراء نصارى ويهود وعبّاد أصنام ، أقسموا برهبان النصارى وبأمور نصرانية ، مع أنهم كانوا عبّاد أوثان .

ومن القائلين بالرأي الأخير ، (نولدكه) . فقد ذهب الى ان رواة الشعر وحملته في الاسلام هم الذين أدخلوا اسم الجلالة في هذا الشعر ، وذلك بأن حذفوا منه أسماء الأصنام ، وأحلّوا محلها اسم الله . فما جاء فيه اسم (اللات) حل محله اسم (الله)[2] . وقد ذهب أيضاً الى ان رواة الشعر في الاسلام حذفوا من شعر الجاهليين ما لم يتفق مع عقيدتهم ، وما وردت فيه أسماء الأصنام . ومن جملة ما استدل به على أثر التغيير والتحريف في الشعر الجاهلي ورود كلمة (الرحمان) في شعر شاعر جاهلي من هذيل ، زعم ان ورود هذه الكلمة في هذا الشعر دليل

---

١ شرح ديوان لبيد (٢١) .

٢ Nöldeke, Beiträge, S. IX, ff.

كاف لاثبات أثر التلاعب فيه ، لأن هذه اللفظة اسلامية استحدثت في الاسلام ، ولا يمكن أن ترد في شعر شاعر جاهلي[1] . وقد فات (نولدكه) صاحب هذا الرأي ان الكلمة بهذا المعنى كلمة جاهلية ، وردت في نصوص المسند وفي نصوص جاهلية أخرى ، وان من جملة من استعملها (أبرهة) الحبشي في نصه الشهير المعروف بنص سد مأرب ، وان قوماً من الجاهليين تعبدوا للرحمان ، على نحو ما تحدثت عن هذه العبادة في موضع آخر من هذا الكتاب .

وادعاء أن لفظة (الله) لم تكن موجودة في الأصل ، وإنما أقحمت فيه من بعد ، وذلك بإزالة رواة الشعر لأسماء الأصنام التي ذكرها أولئك الشعراء ، واحلالهم اسم الله في محلها ، حتى ظهر ذلك الشعر وكأنه شعر شعراء موحدين يعتقدون بوجود إلٰه واحد[2] . هو تعليل فيه شيء من التكلف ، فليس كل شعر فيه اسم الأصنام بصالح لقبول الجلالة ، فقد لا يستقيم من حيث الوزن أو المعنى بإدخال تلك اللفظة في موضع اسم الصنم . ثم إن من الشعر الجاهلي المروي في الإسلام ما بقي محافظاً على اسم الصنم دون أن يمس ذلك الاسم بسوء . ولو كان من عادة الرواة حذف اسم الأصنام عامة لما تركوا لها بقية في الشعر . ثم ما هي الفائدة التي يجنيها الرواة من طمس أسماء الأصنام ، وهم يعلمون أن أهل الجاهلية كانوا وثنيين ، يدينون بالأصنام ، وكانوا يقسمون بها ، وقد رووا أمثلة من ذلك القسم !

أما (ولهوزن) ، فيرى أن عدم ورود أسماء الأصنام في الشعر الجاهلي إلاّ في النادر وإلا في حالة القسم أو في أثناء الإشارة الى صنم ، أو موضع عبادة ، ليس بسبب تغيير الرواة الاسلاميين وتبديلهم لأسماء الأصنام . وإنما سببه هو أدب الجاهليين وعادتهم في عدم الإسراف والإسفاف في ذكر أسماء الآلهة الخاصة ، وذلك على سبيل التأدب تجاه الأرباب ، فاستعاضوا عن الصنم بلفظة (الله) التي لم تكن تعني إلهاً معيناً ، وإنما تعني ما تعنيه كلمة ربّ وإلٰه . ومن هنا كثر استعمالها في القسم وفي التمني أو التشفي وأمثال ذلك من حالات[3] .

Nöldeke, Beiträge, S. X.

Werner Caskel, Das Schiksal im der Altarabische Poesie, Leipzig, 1926, S. 8, Goldziher, Abhandlungen, II, S IX-LXXVI, Ahlwardt, Bemerkungen über die Achtheit der Aletn Arabischen Gedischte.

Reste, S. 217. ff.

ويرى (ولهوزن) أن لفظة (الله) كانت بهذا المعنى في الأصـــل . كانت تعني إلهاً على وجه التعميم ، دون التخصيص ، أي أنها لا تشير إلى إلـه معين . استعملتها كل القبائل بهذا المعنى ، فهي صفة تشير الى الألوهيـة المجردة ، وإن كان أفراد كل قبيلة يقصدون بها صنمهم الخاص بهم . استعاضوا بهـا عن ذكر اسم الصنم . وان استعمالها جملاً مثل : (حاشا لله) و (لله درك) و (لاها الله) ، و (تالله) ، و (ايم الله) ، و (لحا الله) ، و (جزى الله) ، و (جعلني الله فداك) ، و (لك الله) ، و (أرض الله) ، وأمثالها ، هو من هذا القبيل ، الله فيها بمعنى الرب والإلـه . ولما كانت أداة التعريف تفيـــد التخصيص ، فدخولها في اسم الجلالة أفاد التخصيص والعلمية . وهذا ما حدث ، إذ فقدت الكلمة معناها العام ، واتجهت نحو التخصص حتى صارت بهـذا المعنى الذي صارت عليه في الاسلام[1] .

وقد ذهب مستشرقون آخرون الى صحة ورود لفظة الجلالة في الشعر الجاهلي . كما ذهبوا الى ان ورودها في القرآن الكريم أو في الحديث ، لا يمنع من ورودها في الشعر الجاهلي ، ولا يكون سبباً للطعن في ذلك الشعر ، لأن من الجاهليين من كان يؤمن بوجود إلـه هو فوق الآلهة عندهم ، فورود اسمه في شعرهم ، ليس بأمر غريب .

وورود اسم الجلالة في أشعار الجاهليين يحملنا على البحث في أصله : هل هو اسلامي محدث ، أو هو اسم جاهلي قديم ؟ وبحث مثل هـذا يجب ان يستند الى النصوص . غير اننا ويا للأسف لا نملك نصاً جاهلياً يمكن أن يفيدنا في هـــذا الباب ، فكل النصوص الجاهلية التي وصلت الينا خُرس لم تنطق بشيء عن اسم الجلالة ، فليس أمامنا إلا اللجوء الى الطريقة المألوفة في مثل هذه الأحوال ، وهي الرجوع الى آراء علماء اللغة ، والى المقابلة بين العربية واللهجات السامية الأخرى . أما آراء علماء اللغة ، فإنها مثل آرائهم الأخرى في أصول الكلمات الصعبة التي على شاكلتها ، كلها حدس وتخمين . ولا يمكن أن يُستنبط منها شيء تأريخي ، يرجعك الى أول عهد ظهرت فيه هذه اللفظة ، والى المراد منها . وأما المستشرقون ، فمنهم من يرى ان اللفظة عربية أصيلة ، ومنهم من يرى انها من (ألاها) Alaha

---

١ Reste, S. 218.

ومعناها (الإلـه) بلغة (بني إرم) . أما الذين قالوا بعربيتها ، فيرون انها من (اللات) ، اسم الصنم المعروف ، تحرف وتولد منه هذا الاسم[1] .

واللفظة (الله) من أصل (إلاه) ، أي (رب) ، و (بعل) ، وهي من الألفاظ السامية القديمة . ويقال (إلهة) (إلاهة) للأنثى . لأن من الجاهليين من تعبد للآلهة الأناث . وتقابل (ه ــ اله) (ها الاه) (ه الاه) في النصوص الثمودية ، آي (الله)[2] . كما ترد هذه اللفظة في نصوص عربية أخرى مثـل النصوص اللحيانية .

ويلاحظ ان لفظة (الله) هي من التسميات التي وردت في النصوص الشمالية ، ويدل ورودها في هذه النصوص على تأثر العرب الشماليين بمـن اختلطوا بهم من الشعوب التي كانت تقيم في شمال جزيرة العرب ، وأخذهم عبادة هذا الإلـه منهم. ولم تكن هذه اللفظة اسم علم في الأصل ، ثم تخصصت على ما يظهر من النصوص المتأخرة ، فصارت تدل على إلـه معين ثم على إلـه واحد أحد هو إلـه الكون في الاسلام .

ويذكر علماء اللغة ان (لاه) الله الخلق يلوهم خلقهم ، واللآهة الحية ، منها سمّي الصنم اللات بها ، وجوز (سيبويه) اشتقاق اسم الجلالة منها . قال الأعشى :

كدعوة من أبي كبار يسمعها لاهه الكبـار

ولاه : علا وارتفع . وسميت الشمس إلاهة لارتفاعها في السماء[3] . وذكـروا ان (ال) اسم الله ، وكل اسم آخره ال أو ايل ، فمضاف الى الله ، ومنـه جبرائيل وميكائيل[4] ، فهو (ايل) اذن ، إلـه جميع الساميين القديم .

وتعداد المواضع التي وردت فيها لفظة الجلالة أو لفظـة إلـه والإلـه في الشعر الجاهلي ، يخرجنا عن صلب الموضوع ، ويجعل البحث جافاً مملاً . غير أن في استطاعتنـا أن نقول إنها وردت في أكثر ذلك الشعر إن لم نقل فيه كله . وأن ورودها فيه يشير الى اعتقاد أصحاب ذلك الشعر بإلـه واحد قهّار هو إلـه العالمين.

---

١ Ency. Religi., I, p. 661, Ency., I, p. 302.

٢ Reste, S. 209, Mission, II, p. 557, 559, 564, Grohmann, S. 87. ff.

٣ تاج العروس (٩/٤١٠) ، (لاه) ، (٩/٣٧٤) ، (اله) .

٤ تاج العروس (٧/٢١١ وما بعدها) ، (أل) .

غير أن هذا القول يتوقف بالطبع على إثبات أن ذلك الشعر هو شعر جاهلي حقاً ، وأن من نسب اليهم قالوه من غير شك، وأنه لم يوضع على ألسنة أولئك الجاهليين .

الاعتقاد بإله واحد :

والـــذي يفهم – وذلك كما سبق أن قلت – من القرآن الكريم ومن الحديث أن قريشاً ومن كان على اتصال بهم ، أو غيرهم من قبائل أخرى ، لم يكـونوا ينكرون عبـــاده الله ، ولم يكونوا يجحدون الله ، بل كانوا يقرون بوجوده ، ويدينون له ، وإنما الذي أنكره الإسلام عليهم وحاربهم من أجله وسفه أحلامهم عليه ، هو تقربهم الى الأصنام والأوثان ، وتقديسهم لها تقديساً جعلهـــا في حكم الشركاء والشفعاء ومرتبـــة الألوهية . والاسلام لا يعترف بهـــذه الأشياء ، وهو ينكرها ، ومن هنا حاربته قريش ومن كان على هذه العقيدة من حلفائهـــا ومن القبائل التي كانت ترى رأيها . فهنا كان موطن الخلاف ، لا عقيدة الإيمان بالله[1].

وإذا أخذنا بهذا الرأي ، رأي اعتقاد الجاهليين أو بعضهم بإلـه واحد ، نكون بذلك قد حللنا عقدة الازدواجية ، أي العقيدة الثنائية عند الجاهليين ووجودها في شعرهم ، فلا نجد عندئذ غرابة إذا وجدنا شاعراً يذكر الله في شعره ويحلف به، ثم نجده يذكر الأصنام في الشعر نفسه ، ويقسم بها قسمه بالله .

ويكاد يكون الاجماع على ما تقدم . قال ابن قيم الجوزية في معرض مقارنته بين آراء المجوس وعبدة الأوثان من العرب : « بل كفر المجوس أغلظ . وعبّاد الأوثان كانوا يقرون بتوحيد الربوبية ، وأنه لا خالق إلا الله ، وأنهم إنما يعبدون آلهتهم لتقربهم الى الله سبحانه وتعالى ، ولم يكونوا يقرون بصانعين للعالم أحدهما خالق للخير والآخر للشر كما تقوله المجوس »[2] . فالوثنية على هذا الرأي، ليست نكراناً لوجود إلـه ، وإنما هي اعتقاد بوجوده ، واعتقاد بفائدة التقرب اليـــه ، بتقربهم الى الأصنام والأوثان ، أي الشفعـــاء ، بما في ذلك المبالغة في تقـــديس الأشخاص والقبور .

---

١ Reste, S. 217, Lyall, Ancient Arabian Poetry, p. XXIX.

٢ زاد المعاد (٣/٢٢٤) ، (فصل في حكمه في الجزية ومقدارها وممن تقبل) .

ولا نجد للعرب إلهاً قومياً خاصاً بهم كالذي نجده عنـــد العبرانيين من تعلقهم بـ (يهوه) ، وعدهم اياه إلهاً خاصاً باسرائيل . فقد صار هذا الإلـه إلـه جميع قبائل اسرائيل ويهوذا . أما العرب ، فقد كانوا يعبدون جملة آلهة : كل قبيلة لها إلـه خاص بها وآلهة أخرى ، ولم يكن لها إلـه واحد له اسم واحد يعبده جميع العرب . والظاهر ان القبائل الساكنة في الحجاز ونجد والعراق والشأم، صارت قبيل الاسلام تتنكر لأصنامها العديدة ، وتأخذ بالتوحيد وبالاعتقاد بإلـه واحد هو الله، وهو الذي نجده في هذا الشعر الجاهلي الذي هو حاصل تغريد شعراء قبائل عديدة مما يدل على ان قبائل اولئك الشعراء دانوا بالاعتقاد بوجود ذلك الإلـه فوق الأصنام والأوثان ، وقد توّجت هذه العقيدة بتاج النصر في الاسلام . غير ان (الله) في الاسلام يختلف عن الله الجاهليين . فالله هو إلـه العالمين ، إلـه جميع البشر على اختلافهم . ليس له شريك من أصنام وأوثان .

أما الله الجاهليين ، فهو رب الأرباب ، وإلـه الآلهة ، يسمو فوق آلهة القبائل أي آلهة القبيلة الواحدة . ولهذا ذكر في شعر شعراء مختلف القبائل ، لأنه لا يختص بقبيلة واحدة .

ويقال لما يعبد من دون الله : الأنداد . وفي كتاب النبي لأكيدر : وخلـع الأنداد والأصنام . والند : مثل الشيء والنظير . وفي التنزيل : واتخذوا من دون الله أنداداً ، أي ما كانوا يتخذونه آلهة من دون الله[1] .

والله إلـه ذكر . وكيـــف لا يتصور الإنسان إلهه ذكراً ، والذكر هو قوي مقتدر بخلاف الأنثى ! وحيث أن الله هو قوي ومصدر القوة والخلق ، فلا بـد وأن يكون ذكراً في عقلية تلك الأيام ، ولا بد من التعبير عنه بصيغ التـذكير . كما يلاحظ أن الجاهليين قد تصوروه واحداً ، فلم يخاطبوه بصيغة الجمع ، ممـا يفهم منه التعدد .

ولم يتطرق الشعر الجاهلي الى موضوع وجود إلهة أي أنثى تكون زوجـاً له . ولم يشر القرآن الكريم الى اعتقاد الجاهليين بوجود زوجة له . فهو في نظرهم إذن إلـه واحد متفرد لا يشاركه مشارك في حياته . وإذ كان الله واحداً أحداً أعزبَ ، فلا يمكن أن يكون له ولد . ولكن القرآن الكريم يشير الى اعتقاد الجاهليين بوجود

---

١ اللسان (٣/٤٢٠) ، (ندد) .

بنين وبنات لله . ففي سورة الانعام : « وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون »[1] . وقد ذهب المفسرون الى أن العرب قالت الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود والنصارى عزير والمسيح ابنا الله ، وأن النصارى قالت المسيح ابن الله ، وقال المشركون الملائكة بنات الله[2] . وفي سورة النحل « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون »[3] ، وفي سورة الصافات « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون »[4] ، « ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله وإنهم لكاذبون . اصطفى البنات على البنين . مالكم كيف تحكمون »[5] . وفي سورة الزخرف «أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين»[6] وفي سورة الطور « أم له البنات ولكم البنون »[7] . وأجمعوا على أن قريشاً وأضرابهم كانوا يزعمون أن الله اصطفى الملائكة بناتاً له . ولم يذكروا كيف صاروا له بناتاً . وقد ورد في بعض الروايات أن كفار قريش قالوا : « الملائكة بنات الله . فسأل أبو بكر من أمهاتهن ؟ فقالوا : بنات سروات الجن »[8] .

وورد في بعض أقوال علماء التفسير ، ان (أعداء الله) زعموا : ان الله وابليس اخوان[9] . ولم يذكروا من هم (أعداء الله) أهم من العرب أم من غيرهم !

ويظهر ان الذين آمنوا بوجود إلـه ، تصوروا مكانه فوق الانسان ، أي فوق الأرض ، في السماء . لذلك كانوا اذا توجهوا اليه بالدعاء رفعوا أيديهم الى السماء . والسماء ، المكان المرتفع اللائق بأن يكون مقر الرب أو الأرباب . وهو اعتقاد نجده عند غير الجاهليين أيضاً . ومن هذه النظرة ظهر (بعل سمين) (بعل سمن) ، أي (رب السماء) و (إلـه السماء) المذكور في بعض نصوص المسند . وهو إلـه قبيلة (امر) (أمر) من القبائل العربية الجنوبية . الإلـه المرسل للسحاب

---

١ الانعام ، الرقم ٦ ، الآية ١٠٠ .
٢ تفسير الطبري (١٩٧/٧ وما بعدها) ، روح المعاني (٢٠٩/٧) .
٣ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ٥٧ .
٤ الصافات ، الرقم ٣٧ ، الآية ١٤٩ .
٥ الصافات ، الرقم ٣٧ ، الآية ١٥١ وما بعدها .
٦ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ١٦ .
٧ الطور ، الرقم ٥٢ ، الآية ٣٩ .
٨ تفسير الطبري (٦٩/٢٣) .
٩ تفسير الطبري (٦٩/٢٣) .

ومنزل الغيث وباعث الحركة والخصب والخير للناس[1] . وقد تعبد له الصفويون كذلك ، وذكر في نصوصهم . وعرف عندهم بـ (هـ — بعل سمن)[2] .

ولهذه النظرة اتخذ زهادهم لهم معابد خلوية على قمم الجبال وعلى الهضاب والمرتفعات وابتنوا الصروح للتعبد فيها ومناجاة الرب ، واتخذوا من الكهوف المنقورة في الجبال مآوي يتعبدون فيها ويعتكفون الأيام والشهور والسنين . وكانوا اذا أمسكت السماء قطرها ، وأرادوا الاستمطار ، أصعدوا البقر في جبل وعر ، وقد أضرموا النار في السلع والعشر المعقودين في أذنابها ، وهم يتبعون آثارها ، يدعون الله ويستسقونه[3] . ولولا اعتقادهم ان الجبل أقرب الى الله من الأرض ، لما أتعبوا أنفسهم ، فصعدوا الجبل المرتفع مع بقرهم، فكان استسقاءهم من الأرض.

الجبر والاختيار :

هذا وأود ان ابين ان اكثر الذين كانوا يدينون بالتوحيد ، ويعتقدون بوجود إلـه واحد خلاّق لهذا الكون ، كانوا يؤمنون بما نسميه : « القضاء والقدر » او (الجبر) بتعبير أصح . فالخير والشر من الله ، وكل شيء في هذا الكون محتوم مكتوب . وما يصيب الانسان ، لا بد ان يكون قد كتب عليه ، ولا راد لما هو مكتوب ، بل نجد هذه النظرة حتى عند من لم يأت اسم الله في شعره ، فلا ندري أكان من المؤمنين بالله ام لا . وفكرة ان كل شيء في هذا الكون مقدر محتوم ، فكرة قديمة غلبت على عقلية الشرقيين ، بسبب الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية التي كانت سائدة اذ ذاك ، أوضاع جعلت الغالبية من الناس تشعر انها مسخرة ، وانها تدفع في حياتها دفعاً وفي سبيل خدمة النخبة المتحكمة ، المسيرة للأمور ، أضف الى ذلك تأثير عامل الجو في الانسان .

وقضية الجبر والاختيار ، قضية لا نجدها عند المؤمنين بوجود إلـه هو (الله)، أو آلهة أخرى من الجاهليين فقط ، بل نجدها عند غيرهم أيضاً ممن لم يكن يقر بعبادة (الله) ، وينكر وجود خالق ، نجدها عند ممن كان يتعبد للأصنام ،

---

١ Rep. Epigr. 4142, Grohmann, S. 245.

٢ F. V. Winnett, Safaitic Inscriptions from Jordan, p. 18, 23.

٣ ابن فارس ، رسالة النيروز (ص ١٨ وما بعدها) .

أو للقوى الخفيّة ، أو لا يدري أي شيء عن الآلهة والخلق ، أو من الدهرية ، القائلين بالدهر . فهؤلاء أيضاً كانوا يعتقدون أن الإنسان ، مسير ولا اختيار له في هذه الدنيا ، فكل شيء مكتوب عليه . كتب عليه منذ ولد . والسبب ، هو ما قلته: وجود عوامل عديدة سيرت الانسان واستعبدته من أوضاع سياسية واجتماعية وعسكرية واقتصادية ومناخية تحكمت فيه ، حتى رسخ في عقل الجاهلي ، أن كل شيء في هذه الدنيا مقدر مكتوب ، وأن ما كتب على الجبين ، لا يمكن تغييره ولا تبديل له،ولا اعتراض على ما هو مكتوب ، ولا راد لأمر كتب في السماء .

الموت :

وفي مطلع قائمة الموضوعات التي أثارت البشرية ولا تزال تثيرها قضية الموت الذي هو ضد الحياة والعالم الثاني الذي يصير اليه الانسان بعد الموت[1] . إن الموت أمر مخيف راعب يثير مشاعر كل انسان . فما الذي سيكون مصيره بعد الحياة ، وإلى أي مكان سيتجه بعد هذه الحياة ، وهل الموت انطفاء لشعلة الحياة وانحلال للجسد الى الأبد ؟ أو هو مرحلة من حياة الى حياة أخرى يحيا فيها الانسان حياة جديدة ، ويبعث بعثاً جديداً يبعثه من خلقه ؟ ثم ما الذي سيكون عليه في العالم الثاني ؟ هل يعيش عيشة راضية مطمئنة ، عيشة تفوق معيشته في عالمه الأول ؟ أم سيعيش عيشة أخرى ؟ إما راضية ناعمة ، وإما شقيّة تعسة بحسب عمل الإنسان وما قدمه لنفسه من عمل في العالم الأول ؟ هذه الأسئلة وعشرات من أمثالها شغلت بال الانسان البدائي والراقي ولا تزال تشغله . كل وجد لها أجوبة ، وكل قنع بما أجاب به عنها ، ورضي بها . وكانت للجاهليين على اختلافهم آراء في هذه المشكلات لا شك في ذلك .

والموت في كلام العرب : السكون . يقال مات بمعنى سكن[2] . وهذا هو المعنى المفهوم للموت عند الجاهليين . فالمراد من الموت هو سكون الجسد بعد مفارقة الروح له . وقد حار الجاهليون ، كما حار غيرهم في تفسير ظاهرة الموت،

---

١ المخصص (٢/٦٤) .

٢ تاج العروس (١/٥٨٦) ، (موت) .

وكيفية وقوع الموت وحدوثه . وقد اعتبره بعضهم حدثاً طبيعياً ، يحدث للانسان كما يحدث لأي شيء آخر في هذا الكون من التعرض للهـلاك والدمار . واعتبره بعض آخر ، مفارقة الروح للجسد . وهم الذين اعتقدوا بالثنائية وبالازدواجية في حياة الانسان ، أي بوجود جسد وروح . واعتبره آخرون موت للنفس ، وبوفاة النفس يتوفى الجسد ويصيبه السكون . فالموت عندهم مفارقة الروح للجسد ، فإذا مات الانسان خرجت روحه من أنفه ، او من فمه ، فينفض الانسان نَفَسَه . واذا مات ميتة طبيعية ، يقال عن الميت : مات حتف أنفه ، ومات حتف فيه ، أي ان روحه خرجت من أنفه او من فمه ، وهو قليـل ، لأن النفس في نظر اهل الجاهلية تخرج بتنفسه ، كما يتنفس من أنفه . ويقـال أيضاً حتف أنفيه . وكانوا يعتقدون أن المريض تخرج روحه من أنفه ، وأما القتيـل ، والجريح ، فتخرج روحه من موضع جرحه[1] .

ويقال : (زهقت نفس فلان) ، اي خرجت روحه . فهم يتصورون اذن ان روح الانسان كائن مستقل اذا فارق الجسد مات . (وفي الحديث : إن النحر في الحلق واللّبة ، وأقروا الأنفس حتى تزهق ، اي حتى تخرج الروح من الذبيحة ولا يبقى فيها حركة)[2] .

و (الرمق) بقية الحياة ، او بقية الروح ، وآخر النفس[3] . فكأنهم تصوروا ان الشخص المريض او الجريح ، قد ودع معظم نفسه ، ولم تبق من روحه إلا بقية لا تزال في جسده ، هي الرمق .

البعث :

لم يكن كثير من الجاهليين يؤمنون بالبعث كما يتبين ذلك من القرآن الكريم . لقد كانوا يرون أن الموت نهاية ، وانهم غير مبعوثين ، وأن البعث بعـد الموت شيء غير معقول ، لذا تعجبوا من قول النبي بوجود البعث والحساب . « وقالوا

---

١ تاج العروس (٦/٦٤ وما بعدها) ، (حتف) .
٢ اللسان (١٠/١٤٧) ، (زهق) .
٣ اللسان (١٠/١٢٥) ، (رمق) .

إن هي إلا حياتنا الدنيـــا وما نحن بمبعوثين »[1] ، « وأقسموا بالله جهـد ايمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[2] ، « وقالوا أإذا كنّا عظاماً ورفاتاً إنّا لمبعوثون خلقاً جديداً . قل : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ، فسيقولون : من يعيدنا ؟ قل :الذي فطركم أول مرة ، فسينفضون اليك رؤوسهم ، ويقولون : مـتى هو ؟ قل : عسى أن يكون قريباً »[3] . و « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربـي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير »[4] ، و « إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب »[5] ، و « لئن قلت إنكم مبعوثون بعـد الموت ، ليقولن الذين كفروا إن هـــذا الا سحر مبين »[6] ، و « بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون »[7] ، و « ان تعجب فعجب قولهم : أإذا كنّا تراباً أإنا لفي خلق جديد »[8] ، و (أيعدكم أنكم اذا متّم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعـدون . ان هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين »[9] . و « قـال الذين كفروا أإذا كنّا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون . لقد وعدنا هذا ، نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين . قل : سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين . ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون . ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون »[10] ، و « وقالوا : أإذا ضللنا في الأرض أإنّا لفي خلق جديد ، بل هم بلقاء ربهم كافرون . قل يتوفاكم

---

١ الانعام ، الآية ٢٩ .
٢ النحل ، الآية ٣٨ ، تفسير الطبري (١٠٤/٨ وما بعدها) .
٣ الاسراء ، الآية ٤٩ وما بعدها ، تفسير الطبري (١٠٤/١٤ وما بعدها) ، روح المعاني (١٢٨/١٤) .
٤ التغابن ، رقم ٦٤ ، الآية ٧ .
٥ الحج ، رقم ٢٢ ، الآية ٥ .
٦ هود ، رقم ١١ ، الآية ٧ .
٧ المؤمنون ، الآية ٨٢ ، الصافات ، الآية ١٦ .
٨ الرعد ، الآية ٥ .
٩ المؤمنون ، الآية ٣٥ وما بعدها .
١٠ سورة النمل ، رقم السورة ٢٧ ، الآية ٦٧ وما بعدها .

ملك الموت الذي وكل بكم ، ثمّ الى ربكم ترجعون »[1] . و« إن هؤلاء ليقولون: إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين . فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين »[2] .

والآيات المتقدمة وأمثالها[3] كلها حكاية عن رأي كثير من الجاهليين في نفي البعث وفي عدم امكان العودة الى حياة أخرى بعد موت يهلك الجسم ويفني العظام فيجعلها رميماً ويمحو كل أثر للجسم ، لذا كان البعث من أهم ما عارض فيه الجاهليون معارضة قاسية شديدة ، وكان من الموضوعات التي تندروا بها وسخروا وآخذوا عليها الرسول[4] . وكانوا يقولون : « إن هي إلا موتتنا الأولى التي نموتها. وهي الموتة الأولى ، وما نحن بمنشرين بعد مماتنا ولا بمبعوثين تكذيباً منهم بالبعث والثواب والعقاب » . وقالوا للرسول : « فأتوا بآبائنا الذين قد ماتوا ان كنتم صادقين ان الله باعثنا من بعد بلانا في قبورنا،ومحيينا من بعد مماتنا »[5] . وقالوا : « أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون؟ يقولون منكرين بعث الله اياهم بعد بلائهم . أئنا لمبعوثون أحياء من قبورنا بعد مماتنا ومصيرنا تراباً وعظاماً قد ذهب عنها اللحوم . أو آباؤنا الأولون الذين مضوا من قبلنا فبادوا وهلكوا ؟ »[6] .

وكان من محاججة قريش للرسول ومحاولتهم إفحامه وتعجيزه قولهم له يوم اجتمعوا به : « يا محمد ؟ فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت انه ليس من الناس احد أضيق بلداً ولا اقل ماءً ولا أشد عيشاً منا . فسلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشأم والعراق . وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول ، أحق هو ام باطل ، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وانه بعثك رسولاً كما

---

١ السجدة ، رقم السورة ٣٢ ، الآية ١٠ وما بعدها ، تفسير الطبري (٩٦/٢١) ، روح المعاني (١١٢/٢١ وما بعدها) .

٢ الدخان ، رقم السورة ٤٤ ، الآية ٣٤ وما بعدها ، تفسير الطبري (٧٦/٢٥ وما بعدها) .

٣ هود ، ٧ ، المؤمنون ٨٢ وما بعدها ،سبأ ، ٣ وما بعدها ، الجاثية ، ٢٤ وما بعدها .

٤ الكشاف (٤٤٨/١) ، (٧٤/٢ ، ١٨٩ ، ١٩٥ وما بعدها) ، الطبرسي (٣٩/٧) ، (٧٥/١٤) ، (٥٨/١٥) ،

٥ تفسير الطبري (٧٦/٢٥) ، (٧٨/١ وما بعدها) .

٦ تفسير الطبري (٣٠/٢٣) .

تقول ! »[1] . وسألوه أسئلة اخرى من هذا القبيل ، لتعجيزه في اثبات البعث . « جاء عبدالله بن أبيّ الى النبي صلى الله عليه وسلم ، بعظم حائل فكسره بيده، ثم قال : يا محمد ، كيف يبعث الله هذا وهو رميم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يبعث الله هذا ويميتك ثم يدخلك جهنم »[2] . وأتى (أبيّ بن خلف) رسول الله (بعظم حائل ففته ثم ذراه في الريـــح . ثم قال : يا محمد من يحيي هذا وهو رميم ؟ قال الله يحييه ثم يميته ، ثم يدخلك النار »[3] . و « جاء العاص ابن وائل السهمي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعظم حائل ففته بين يديه . فقال يا محمد أيبعث الله هذا حياً بعدما أرم ؟ قال : نعم يبعث الله هذا ، ثم يميتك ، ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم »[4] .

وممن أنكر البعث على ما ذكره الأخباريون قوم من قريش كانوا زنادقة أنكروا الآخرة والربوبية ، أخذوا زندقتهم هذه من الحيرة[5] . وإذا كان من هؤلاء من كان يقدم القرابين والهدايا لأصنامه ، فإن ذلك لا يعني أنه كان يفعل ذلك لترضى عنه في العالم التالي ، بل كان يفعل ذلك لترضى عنه في هذه الحياة الدنيا ، لتمن عليه بالنعم والخيرات . أمـــا العالم الثاني ، فهو عالم لا يهتم به ، لأنه لم يكن يتصور وجوده ولا حدوثه بعد الموت[6] .

ويتجلى هذا الانكار للحشر والبعث في أبيات تنسب الى (شدّاد بـن الأسود ابن عبد شمس بن مالك) يرثي بها قتلى قريش يوم بدرٍ ، وهم الذين قتلوا في تلك المعركة وألقوا في القليب :

أيوعدني ابن كبشة أن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام ؟
أيعجز أن يرد الموت عـــني وينشرني إذا بليت عظـــامي

أراد الشاعر إنكار البعث،وأن يصير الإنسان مرة أخرى انساناً بعد أن تتحول

---

١ ابن هشام (١/١٨٦) ، (حاشية على الروض) .
٢ تفسير الطبري (٢١/٢٣) ، روح المعاني (٥٠/٢٣) .
٣ تفسير الطبري (٢١/٢٣) ، الاشتقاق (٨٠) .
٤ تفسير الطبري (٢١/٢٣) .
٥ المحبر (ص ١٦١) ، بلوغ الارب (١/٣٤٥) ، المعارف (٦٢١) .
٦ Reste, S. 185.

روح الانسان الى طير[1] .

وذكر ان (الحارث بن عبد العزى) ابو رسول الله من الرضاعة ، لما قدم مكة ، قـالت له قريش : « ألا تسمع يا حار ما يقول ابنك هذا ؟ فقال : وما يقول : قـالوا : يزعم ان الله يبعث بعد الموت ، وان لله دارين يعذب فيها من عصاه ، ويكرم فيها من أطاعه . فقد شتت أمرنا وفرّق جماعتنا »[2] . فهم ينكرون البعث والحساب ، ولا يريدون سمـاع شيء عنها ، ولا يصدقون عودة الروح الى الجسد بعد أن فارقته ، فذلك عندهم من المستحيلات ، ولذلك سخروا من البعث لما سمعوا به . وكيف يكون بعثاً وقد فنيت الأجساد ، فلم تبق منها بقية !

فرأي من أنكر الحشر والبعث من أهل الجاهلية ، ان الحياة حيـاة واحدة ، هي حياتنا التي نحن فيها في دار الدنيا ، ولا يكون بعد الموت بعث ولا حساب ، نحيا ونموت ، يموت بعضنا ويحيا بعضنا ، وما يميتنا إلا الأيام والليالي ، اي مرور الزمان وطول العمر[3] . فالحياة اذن حياة وموت في هـذه الدنيا ، وهي استمرار للاثنين على مدى الدهر ، يولد انسان ثم يموت ليحل محله انسان آخر ، وهكذا بلا انتهاء .

ونجد رأي الناكرين للبعث في قوله تعالى : « وقالوا : ما هي إلا حياتنـا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر »[4] . فهم يقولون : ما هـي الا حياتنا الدنيا ، نموت نحن ويحيا أبناؤنا بعدنا ، فجعلوا حياة ابنائهم بعدهم حياة لهم ، لأنهم منهم وبعضهم ، فكأنهم بحياتهم أحياء . والدهر الزمان ، وهو الذي يهلك ويفني[5] . فالحياة بهذا المعنى ، فعل مستمر ، وتطور لا ينتهي ، يهلك جيل،

---

١ وهي من أبيات رويت بصور مختلفة ، وفي بعضها زيادات ، راجـع ابن هشام (١/١١٣) ، هامش على الروض الانف ، كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصـير (ص ٣٠٨) ، « طبعة أوروبة ١٩٢٧ » ، بلوغ الارب (٢/١٩٨) ،

يحدثنـا الرسول بـأن سنحيا وكيف حيـاة أصـداء وهـام ؟

بلوغ الارب (٢/١٩٢) .

٢ الروض الآنف (١/١٠٧) .

٣ تفسير الطبرسي (٢٥/١٣٦) ، (بيروت) ، (٢٥/٧٨) ، (طهران) .

٤ الجاثية ، الآية ٢٤ ، تفسير الطبري (٢٥/٩١) ، روح المعاني (٢٥/١٣٩) .

٥ تفسير الطبري (٢٥/٩١ وما بعدها) ، (بولاق) ، (٢٥/١٥١ وما بعدها) ، (القاهرة ١٩٥٤) .

ليأخذ محله الجيل الذي نبت منه . وكلّ يأخذ دوره في هذه الحياة ، فإذا انتهى دور انسان ، قام بدوره نسله ، وهكذا ، وبهذا المعنى تفسر الحياة ، ويفسر الموت .

وقد يسأل سائل اذا كان أغلب أهل الجاهلية لا يؤمنون بثواب ولا بحساب وبعث ونشر ، فلمَ تعبّدوا اذن لإلـه ، وتقرّبوا الى الأصنام ، وقدّموا القرابين والنذور ؟ وجوابي على هذا السؤال ، هو ما ذكره المتقدمون عنه . قالوا : « كانت العرب في الجاهلية تدعو في مصالح الدنيا فقط ، فكانوا يسألون الإبل والغنم والظفر بالعدوّ ، ولا يطلبون الآخرة ، اذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها »[1] . فعبادتهم الله وتقربهم الى الآلهة ، هي لمصلحة دنيوية ، لنفع ولزيادة في مال ، ولدفع شر الأذى والأمراض وعيون الحساد ، ومن كل ما هو شر ، أما الآخرة ، فلا علم لهم بها .

وما خوفهم من الآلهة إلا لاعتقادهم أنها تضرهم وتهلكهم وتنزل بهم الشرّ في هذه الدنيا . فإذا أقسم أحدهم كذباً ، انتقمت الآلهة منه وأنزلت به نازلة ، لذلك تجنبوا الايمان الكاذبة ، وامتنعوا من الحلف جهد إمكانهم ، لخوفهم من عاقبة الحلف الكذب . والعاقبة السيئة تكون في هذه الدنيا . وهي عواقب مادية ، لأن عقلية اكثر اهل الجاهلية لا تدرك إلا القيم المادية للأشياء . فتصوروا العاقبة السيئة تصوراً مادياً ، كنزول مرض بإنسان أو نزول كارثة بماله او بإبله أو بزرعه او بأهله ، وهي أمور يخشاها الجاهلي ، تكون معجلة في نظره ، اي في هذه الدنيا . لأنهم لا يعرفون ان في الحياة داراً غير هذه الدار ، ولا يؤمنون بحشر وبعث .

جاء في الأخبار ان (ضمام بن ثعلبة) السعدي ، ويقال التميمي ، لما قدم على الرسول ، اقبل حتى وقف على رسول الله ، وهو في اصحابه ، فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله : انا ابن عبد المطلب . قال : أمحمد؟ قال : نعم . قال : يا ابن عبد المطلب إني سائلك ومغلظ عليك في المسئلة فلا تجدنّ في نفسك . قال : لا اجد في نفسي . سل عمّا بدا لك . قال انشدك بالله إلهك وإلـه من كان قبلك وإلـه من هو كائن بعدك الله امرك ان تعبده وحده

---

١ تفسير القرطبي (٢/٤٣٢) .

لا نشرك به شيئاً ، وان نخلع هذه الأوثان التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال : اللهم نعم . ثم سأله عن الفرائض ، فأسلم . فلما قدم على قومه ، فاجتمعوا اليه ، (فكان أول ما تكلم به ، ان قال : بئست اللات والعزى . قالوا : مه يا ضمام اتق البرص ، اتق الجـــذام ، اتق الجنون . قال : ويلكم انهما والله ما يضران وما ينفعان)[1] . فالعقاب عقاب مادي في هذه الدنيا ، ترسله الآلهة على الانسان .

غير ان فريقاً من الجاهليين كما يقول أهل الأخبار كان يؤمن بالبعث وبالحشر بالأجساد بعد الموت ، ويستشهدون عـــلى ذلك بـ (العقيرة) وتسمى (البلية) أيضاً . والبلية الناقة التي كانت تعقل عند قبر صاحبها اذا مات حتى تموت جوعاً وعطشاً . ويقولون انه يحشر راكباً عليها ، ومن لم يفعل معه هذا حشر راجلاً . وهذا مذهب من كان يقول منهم بالبعث ، وهم الأقل . ومنهم زهير فإنه قال :

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم[2]

ويذكر أيضاً انهم كانوا يعكسون رأس الناقة أو الجمل أي يشدونه الى خلف بعد عقر احدى القوائم او كلها لكيـــلا تهرب ، ثم يترك الحيوان لا يعلف ولا يسقى حتى يموت عطشاً وجوعاً ،ذلك لأنهم كانوا يرون ان الناس يحشرون ركباناً على البلايا ومشاةً اذا لم تعكس مطاياهم عند قبورهم[3] ،وفي هذا المعنى قال الشاعر في البلية :

والبلايا رؤوسها في الولايا مانحات السموم حر الخدود

والولايا هي البراذع ، وكانوا يثقبون البرذعة فيجعلونها في عنق البليـــة وهي معقولة . وأوصى رجل ابنه عند الموت بهذه الوصية :

يا سعدُ امـــا أهلكنّ فإنني أوصيك إنّ أخا الوصاة الأقرب

---

١ الاستيعاب (٢٠٧/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ الروض الانف (٩٦/١) ، الشعر والشعراء (٧٦/١) ، (بيروت ١٩٦٤ م) .
٣ تاج العروس (٤٣/١٠) ، اللسان (٩٢/١٨) ، النهاية (١١٥/١) ، رسالة الغفران (٣٣٣ وما بعدها) ، (بنت الشاطىء) .

لا تتركـــن أباك يمشي خلفهم تعباً يخرّ عـــلى اليدين وينكب
احمل أباك عـــلى بعـــير صالح وابق الخطيئة إنـــه هو أصوب
ولعلّ مالي ما تركت مطيّـــة في اليم أركبها إذا قيل اركبوا[1]

وذكر أنهم كانوا يحفرون للبايـــة حفرة وتشد رأسها الى خلفها وتبلى ، أي تترك هناك لا تعلف ولا تسقى حتى تموف جوعاً وعطشاً . وكانت النساء ، يقمن حول راحلة الميت فينحن إذا مات أو قتل ، وقد عرفن بـ (مُبَكّيات)[2] .

وفي رواية أن بعض المشركين كان يضرب راحلة الميت بالنار وهي حيّة حتى تموت[3] ، يعتقدون أنهم إنما يفعلون ذلك ، ليستفيد منها الميت بعد الحشر[4] .

وإذا كانت عقيدة الجاهليين في عقر الحيوانات المسكينة وإهلاكها قـــد ماتت وزالت ، بسبب تحريم الإسلام لها ، فإن فكرة حشر الناس ركباناً لا تزال باقية حية عند بعض الناس . فالذين يقدمون (العقيقة) في الحياة أو يقدمونها حـــين الوفاة ومع نقل الجنازة أو على القبر ، يختارون أحسن الحيوانات وأقواها لتتمكن من حملهم يوم المحشر ، وتنهض بهم ، فيسير راكباً ، ولا يحشر وهـو مترجل يسير في تلك الساعات الرهيبة ماشياً على قدميه .

ويقال للموت وللحساب (اللِزام)[5] .

ولا أعتقد أن نحر الإبل على القبر وتبايله بدم الإبل المذبوحة[6] ، مجرد عـادة يراد بها إظهار تقدير أهل الميت له ، او تمثيل كرم الراحل حتى بعـد وفاته ، بل لا بد أن يكون هذا النحر من الشعائر الدينية والعقائد الجاهلية التي لها علاقة بالموت وباعتقادهم أن موت الانسان لا يمثل فناءً تاماً وإنما هو انتقـال من حال الى حال .

---

١ الشعر لـ (جريبة بن الاشم الفقعسي) ، يوصي ابنه به وقد ورد بصور أخرى ، راجع الروض الآنف (١/٩٦) ، النهاية ، لابن الاثير (١/١١٥) ، اللســـان (١٤/٨٥ وما بعدها) ، تاج العروس (١٠/٤٣) ، طبقات الامم (٤٩) .
٢ اللسان (١٤/٨٥ وما بعدها) .
٣ المخصص (٦/١٢٢) ، اللسان (١٦/١٥) ، الاغاني (٦/١٢٢) .
٤ الاغاني (١٦/٤٨) ، « أخبار زيد الخيل » ، (١٧/١٧٦) ، (بيروت ١٩٥٥) ، Reste, S. 180.
٥ تاج العروس (٩/٥٩) ، (لزم) ، المخصص (٦/١٢٢) .
٦ الاغاني (١٩/٨٨) .

وذكر (السكّري) ، أن أكثر العرب كانوا يؤمنون بالبعث . واستشهد على ذلك بشعر للأعشى ، ذكر فيه الحساب . كما ذكر أنهم كانوا يؤمنون بالحساب، واستشهد على رأيه هذا بشعر للأخنس بن شهاب التميمي[1] . وقول (السكري) هذا مردود، بما ورد في القرآن الكريم من إنكار أغلبهم للحساب والبعث والكتاب، وأما الذين قالوا بالبعث ، فهم طائفة لا تصل الى مستوى الكثرة أو الكلّ حتى نستعمل صيغة التعميم .

وإذا كان ما تصوره أهل الجاهلية عن البعث والحشر صحيحاً على نحو ما ذكره أهل الأخبار ، فلا يستبعد أن يكون القائلون بـه أو بعضهم قد تصوروا الحساب على نحو ما يحاسب الانسان على عمله في دنياه . ويلاحظ أن القيامة والبعث والحشر والجنة والنار هي من الكلمات العربية التي لا يستبعد أن يكون لها مفهوم قريب من مفهومها الإسلامي عند الجاهليين .

أما كيف تصور أولئك الجاهليون حدوث البعث والحشر ، هل هو قصاص وثواب وعقاب وحساب وجنّة ونار،أو هو بعث وحشر لا غير ، فأهل الأخبار لم يأتوا عنه بجواب ، ولم يذكروا رأي تلك الفئة المقرة بالبعث والحشر في ذلك. ولهذا فليس في استطاعتنا إعطاء صورة واضحة عن الحشر وعمّا يحدث بعده من تطورات وأمور .

ولم تتحدث الكتابات الجاهلية عما سيحدث للانسان بعد موته . وكل ما ورد فيها هو توسل الى الآلهة بأن تنزل غضبها على كل من يحاول تغيير قبر ، أو ازالة معالمه ، أو دفن ميت غريب فيه ، وان تنزل به الأمراض والآفات والهلاك. ولم تذكر تلك النصوص السبب الذي حمل أهل القبور على التشدد في المحافظة على القبر وعلى ضرورة بقائه ودوامه . فلا ندري اذا كان ذلك عن تفكير بوجود بعث ، وبتصور قيام الميت من قبره مرة أخرى ، ورجوعه ثانية الى الحياة ، او الى عالم ثان ، هو عالم ما بعد الموت ، ولهذا حرصوا حرصاً شديداً على عدم السماح بدفن أحد في قبر ، إلا اذا كان من أهل صاحب القبر ومن ذوي رحمه، حتى لا يتأذى الميت من وجود الغرباء ، وليستأنس بأهله وبذوي قرابته مرة أخرى بعد عودة الحياة اليه ، فيرى نفسه محشوراً معهم ، ومع من أحبه في حياته، عائشاً

---

١ المحبر (٣٢٢) .

معهم ، كما كان قد عاش معهم ، أو ان حرصهم على حرمة القبر ، انما كان عن مراعاتهم لحرمة القبر ، وعلى منزلة الموتى ، فالمسّ بحرمة القبر ، مسّ بحرمة الميت ، وانتهاك لمقامه ولمكانته ، ولما كان عليه في هذه الحياة !

وهناك من كان يعتقد ان الميت وان غيب في قبره وانقطعت علاقته بآله وذويه ، الا ان روحه لن تموت ، وانه يظل وهو في قبره يقظاً ، متتبعاً لأخبار أهله . تخبره بها هامته التي تكون عند ولد الميت في محلته بفنائهم ، لتعلم ما يكون بعده فتخبره به ، حتى قال الصلت بن أمية لبنيه :

هامي تخبّرني بما تستشعروا فتجنبوا الشنعاء والمكروها [1]

وأما ما ورد في الشعر الجاهلي من أمر الحشر والنشر والحساب والكتاب والعالم الثاني ، فهو مما ورد ودوّن في الاسلام ، ولم أجد في رواية من روايات أهل الأخبار ان أحداً من رواة الشعر الجاهلي ، ذكر انه نقل ما نقل من هذا الشعر من ديوان جاهلي ، أو من كتاب كتب قبل الاسلام . ومع ذلك ، فإن هذا المروي عن العالم الثاني قليل ، لذلك لا نتمكن لقلته من تكوين صورة واضحة عن ذلك العالم ومن التحدث بطلاقة عن رأي أصحاب هذا الشعر في الحشر والنشر والبعث .

وأما ما ورد في شعر (أميّة بن أبي الصلت) عن الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار ، فهو أوسع ما ورد في الشعر الجاهلي في هذا الموضوع . وأمية ، هو الشاعر الجاهلي الوحيد الذي جاء أكثر شعره في نزعات دينية وفكرية ، ذلك لأنه كان في شك من عبادة قومه ، وكان على شاكلة غيره ممن سئم تلك العبادة ، ينهى قومه عنها ، ويسفه أحلامها ، وقد تأثر باليهودية وبالنصرانية . وفي شعره اعتقاد بالجنة والنار والبعث . وبصحة المعاد الجسماني ، وبوجود الجنة والنار بالمعنى الحقيقي ، لا المجازي ، وهو يتفق في ذلك مع الإسلام . كما تحدثت عن ذلك في الفصل الخاص بالأحناف .

وكان (الأعشى) ممن يؤمن بالله وبالحساب ، وقد استشهد من قال ذلك عنه

---

١ مروج (٢/١٣٣) .

بأبيات شعر تشعر أنه كان يؤمن بالحساب وبقيام الانسان بعد الموت لمحاسبته على عمله . من ذلك قوله :

يراوح مـــن صلوات المليك طوراً سُجوداً وطوراً جُؤارا
بأعظم منك تُقى في الحساب إذا النسمات نفضن الغبـــارا[1]

وكان (زهير بن أبـي سلمى) على مذهب من كان منهم يقول بالبعث ، وهم الأقل[2] قال :

يؤخر فيوضع في كتابٍ فيدخر ليـوم الحساب أن يعجل فينقم[3]

وكان (حاتم) طيء من المتألهين ، ومن المعتقدين بالحساب . وقد أورد أهل الأخبار له شعراً في ذلك[4] .

البلية والحشر :

ولم يذكر أهل الأخبار كيف تصور القائلون بالقيامة وبالحشر من أهل الجاهلية قيام الموتى ومشيهم الى المحشر . فقد ذكروا ان قومـــاً من الجاهليين كانوا اذا مات أحدهم عقلوا ناقة على قبره وتركوها حتى تبلى ، وتسمى لذلك (البلية) . وقالوا : « البلية كغنيّة الناقة التي يموت ربها ، فتشد عند قبره ، فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً أو يحفر لها وتترك فيهـــا الى ان تموت ، لأنهم كانوا يقولون صاحبها يحشر عليها ، و (كانوا يزعمون ان الناس يحشرون ركباناً على البلايا ومشاة اذا لم تعكس مطاياهم عند قبورهم) . وذكـر انهم (كانوا في الجاهلية يعقرون عند القبر بقرة أو ناقة أو شاة ، ويسمون العقيرة البلية) ، (وفي فعلهم هذا دليل على انهم كانوا يرون في الجاهلية البعث والحشر بالأجساد. وهم الأقل . ومنهم زهير)[5] . وفي هذا المعنى يقول جريبة بن أشيم[6] :

---

١ رسالة الغفران (١٨٠) .
٢ الروض الانف (١/٩٦) .
٣ الروض الانف (١/٩٦) .
٤ رسالة الغفران (٤٨٨) .
٥ تاج العروس (١٠/٤٣ وما بعدها) ، (بلى) ، القاموس (٤/٣٥٠ وما بعدها) .
٦ اللسان (١٢/٦٢٥) ، (هوم) ، تاج العروس (٩/١١٢) ، (هيم) ، (جريبة بن الاشيم الفقعسي) ، بلوغ الارب (٢/٣٠٧) .

يا سعدُ إمـــا اهلكنّ فإنني أوصيك أن أخا الوصاة الأقربُ
لا أعرفن أباك يحشر خلفـــكم تعباً يخرّ على اليدين وينكب
واحمـــل أباك على بعير صالح وتقى الخطيئة انه هو أصوب
ولتقلّ لي مما جمعت مطيّة في الحشر أركبها اذا قيل: اركبوا[1]

ومن ذلك قول عمرو بن زيد المتمني يوصي ابنه عند موته في البلية :

أبنيّ زوّدني اذا فارقتـــني في القبر راحلةً برحـــل فاتر
للبعث أركبها اذا قيل : اظعنوا مستوثقين معـــاً لحشر الحاشر
من لا يوافيه عـــلى عثراته فالخلق بين مدفع أو عاثر[2]

وقال عويمر النبهاني :

أبنيّ لا تنسَ البليّة إنهـــا لأبيك يوم نشوره مركوب[3]

وأوصى رجل ابنه عند الموت بهذا :

لا تتركـنّ أباك يحشر مرة عدواً يخر على اليدين وينكب[4]

وطريقتهم في ذلك أن أحدهم اذا مات ، بلوا ناقته ، فعكسوا عنقها الى مؤخرتها مما يلي ظهرها ، أو مما يلي كلكلها أو بطنها ، ويأخذون وليّة فيشدون وسطها ، ويقلدونها عنق الناقة ، ويتركون الناقة في حفيرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت، وربما أحرقت بعد موتها ، وربما سلخت وملىء جلدها تماماً[5] .

قال شاعر في البليّة :

والبلايا رؤوسها في الولايا ما نجات السموم حر الخدود

---

١ اللسان (١٢/٦٢٤) ، (هوم) ، تاج العروس (٩/١١٢) ، (هيم) ،بلوغ الارب (٢/٣٠٧ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٢/٣٠٩) .
٣ بلوغ الارب (٢/٣٠٩) .
٤ الروض الآنف (١/٩٦) .
٥ بلوغ الارب (٢/٣٠٧) ، اللسان (١٤/٨٥ وما بعدها) ، (بلا) .

والولايا هي البراذع . وكانوا يثقبون البرذعة ، فيجعلونها في عنق البليّة وهي معقولة حتى تموت[1] .

أما كلمة (جهنم) ، فيرى العلماء أنها من الكلمات المعربة . ويظن المستشرقون أنهـا من أصل عبراني[2] . ومن أسماء جهنم على رأي علماء اللغة (الهاوية)[3] . و (أم الهاوية)[4] .

---

١ الروض الأنف (١/٩٦) .
٢ المعرب ، للجواليقي (ص ١٠٧) « طبعة دار الكتب المصرية » ، Ency., I, p. 998.
٣ اللسان (٢٠/٢٥٠) .
٤ المخصص (١١/٣٨) .

obeikandl.com